الفصل السادس عشر

الشجاعة

الخوف غريزة كما علمت ، أما الشجاعة فصفة كسبية تجود بها التربية ويصقلها التمرين. والجبان والشجاع سواءان عند الصدمة الأولى، ثم يتفرقان فيخور الجبان ويتعثر فى أذيال الخيبة، ويحتال الشجاع ليتملص من الأذى. وقد أنصف ابن حزم ففسر الشجاعة: " بأنها بذل النفس للذود عن الدين أو الحريم أو الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلما فى المال والعرض وسائر سبل الحق؛ والصبر على ما ذكرنا جبن وخور، وبذلها فى عروض الدنيا تهور وحمق، وأحمق من ذلك من بذلها فى منع الحقوق والواجبات، وأحمق من هؤلاء قوم لا يدرون فيم يبذلون أنفسهم، فيتعرضون للمهالك: إما إلى العار، وإما إلى النار ".

وقد التبس على بعضهم معنى الشجاعة فعدها غريزة، ووصفها بأنها قوة نفسية كامنة تظهرها الحوادث من غير انتظار، حتى إن الشجاع بعد خروجه من ميدان القتال يرى أن ما أبداه فيه من البسالة والإقدام ممكن لكل شخص، إذا أتيح له موقف مماثل لموقفه.

والحقيقة أن هذا الوصف ليس يدل على الشجاعة التى نحن بصدد بحثها فى هذا المقام، بل ينطبق على غريزة الهرب الآتية، وهذه الغريزة تتنبه فى أحوال استثنائية، عند الطوارئ والحوادث الفجائية.

وإذا سلمنا جدلا بأن الشجاعة غريزة، تأتى وجودها كالغرائز الآخر فى كل شخص ومن دون جد ومكافحة، وكاد من العبث حينئذ أن تعد من ألقاب العظمة والتمجيد، وأن يتأسل بها الفخر فينتقل بالميراث من جيل إلى جيل.

الهمجى لا يرى الشجاعة غريزة، بل يعتقد أنها تتولد بالعلاج، ذلك أن الوالد يذهب إلى الغابة فيصيد الأسد، ثم يشق صدره ويستخرج قلبه وينضجه ويطعمه أبناءه فيشبون على الشجاعة. وليس اختيار القلب من بين الأعضاء لإطعام أبنائه إلا دليلا على أن القلب هو آله الشجاعة، فإذا تمثل فى الجسم هو آلة الشجاعة، فإذا تمثل فى هذا الجسم وجرت عصارته فى الأعصاب ظهر الابن الصغير بمظهر البسالة والإقدام ، وهل الشجاعة فى نظر المتمدين إلا صلابة فى الجسم، ورزانة فى القلب، وممارسة للمخاطر، واندفاع فى حومة الوغى بصدر رحب، واستخفاف بالموت فى سبيل المحافظة على النفس والأهل والعشيرة والوطن؟

إن أغلى شيء يملك من الإنسان لبه إنما هو الحياة، ولا شيء ينجيها من الأذى ويجعلها بمعزل عن مواقف الهلاك سوى البعد عن المخاوف، أو بعبارة أخرى، إن الجبن سبيل الحياة الهادئة التى ترتاح إليها النفوس الضنينة وهو لا يحتاج إلى كفاح، ولذلك عدّ من الغرائز، فيكفل سلامة الجسم فى الطور الأول، حتى تتولد الشجاعة فتتسلم زمام الأمور، وتسيرها على الوجه الأكمل.

والشجاعة التى عليها مدار كلامنا ينطوى تحتها حب الكسب من وجوهه الشريفة، والصراحة فى القول، وخدمة الأمة بإبراز المخترعات النافعة، وارتياد المجاهل، والجهاد بأنواعه المشروعة.

قال ملك لوزيره وهو يختبر حذقه: ائتنى بأردأ طعام، فى أقبح إناء، يحمله أحقر إنسان ، فظن الوزير أن طِلبة الملك سهلة ميسورة، فاستحضر فولا ووضعه فى وعاء من الخزف، واستأجر لحمله إلى الملك عاملا حقير الملابس، وكاشفه بالأمر. فدهش العامل وقال للوزير: **لقد أخطأت المراد، وحدت** عن طريق السداد؛ دونك

الطعام الذى تقدر الوجبة منه بعشرات من الجنيهات، وهو الطعام الغليظ الذى تضعف المعدة دون هضمه؛ دونك الوعاء الذهبى المكلل باليواقيت، وقيمة الصفحة منه مئات من الجنيهات، وهو الوعاء الذى إذا كسر كانت الخسارة باهظة؛ دونك فلانا الثرى الوارث المنغمس فى النعيم والترف، اللاهى عن مهام الحياة، الذى لا يبالى أن يكيل المال جزافا؛ خذ هذا الذى وصفته لك إلى الملك فإنه الذى عناه بطلبه. وأجرؤ وأقول: إنى - وإن كنت فقيرا معدما - ذو نفس شريفة غنية. وهل فى شخص غيرى يتحقق معنى الشجاعة وأنا أسعى إلى القوت بياض نهاري، ومتى انتهى النهار جئت بأجرى الزهيد وصرفته على بيتي، معتقدا أنه ثمين، لأنه ثمرة عرق الجبين؟

نعم تتمثل الشجاعة فى هذا الشخص وفى البناء مثلا، ذلك الذى يقوم بعمله واقفا على عود خشب قد ينكسر به، أو يفلت منه فيهوى إلى الأرض، وهو على كل حال معرض لزمهرير البرد ووهيج الشمس، قانع من القوت بالنزر اليسير، راض من الرزق بالأجر الزهيد.

كذلك تتمثل الشجاعة فى نفس العامل الذى انطوى به باطن الأرض، إما فى مناجم الفحم بعيدا عن مناظر الكون الجميلة، متنفسا فى جو من الغاز السام، وربما انفجرت فيه عين ماء، أو التهب فيه الغاز فيذوق الموت الزؤام. وإما فى مسابك الحديد وقبس النار يلمع فى الأفق، وآلاف الشرر تتصعد فى الجو، ومذوب الحديد يجرى كالماء فى الجداول، إذا مس الجسم شيء منه ذهبت النفس شعاعا.

كذلك تتمثل الشجاعة فى نفوس المستكشفين الذين يهجرون أوطانهم وما حوته من نعيم، لتفقد البلاد النائية، واستخراج حاصلاتها، والانتفاع بخيراتها، ويزيدون رفاهية العالم بما يوسعونه من الأرزاق عليهم وعلى الناس.

وتتمثل فى نفس الجندى الذى يخرج إلى الحرب وعلى جسمه العديد من الأسلحة، والجو متلبد بالبارود، يلقى إليه الأمر بالهجوم فينقض على الحصن

المسلح، وينال منه إحدى السعادتين: الفوز على العدو أو الموت الشريف، ويبنى له ولقومه حصنا من الفخر، ومكانا من الرفعة. ومن لنا بمثل خالد بن الوليد الذى قال وهو يحتضر: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشى كما يموت الشجعان فلا نامت أعين الجبناء».

وتتمثل الشجاعة فيمن يسهرون للمصلحة ويجيدون المخترعات، ويزاولون التجارب على ظهر الأرض، أو فى الجو وقرار البحر والموت يهدد حياتهم. وكم ضحى بها العلماء، رغبة فى إدراك طلبهم، فماتوا شهداء المصلحة العامة، كالشخص الذى يخلص غيره من شر أحدق به، حبا فى حياة أخيه، وإرضاء لضميره الشريف.

وتتمثل الشجاعة فى نفس أصحاب المبادئ السامية، تأمل نصيحة أم عبد الله بن الزبير له، وقلما سمعت بمثلها من أم إلى ولدها. دخل عبد الله على أمه فقال يا أماه: خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى لم يبق معى إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا فما رأيك؟. فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك فى الدنيا؟ فقال يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى. قالت: يابنى: إن الشاة المذبوحة لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك، واستعن بالله

فترى لصاحب المبدأ عقيدة راسخة ينطلق لتأييدها ونشرها، غير مبال بسخط الساخطين، أو عقاب الحكام، وكل ما يلقاه من العدوان حينئذ يقع فى نفسه موقع القبول. فكم صبر الأنبياء والحكماء على أذى الناس لاعتقادهم أن الحق ناصرهم. وكم تحمل جوناس هوناوى استهزاء الناس به، سائرا فى شوارع لندن فى يوم ممطر،

حاملا مظلة اخترعها لم يعهدها الناس من قبل. وقد لبث فى جد متواصل حوالى ٣٠ سنة لا يبالى بما يوجهونه نحوه، حتى نجح فى نشر استعمالها.

هذه الجهود التى استلزمتها الشجاعة على ما فيها من السمو ورفعة القدر، يراها الحكيم دون شجاعة من يجاهد نفسه فيحضها على الفضائل، ويبعدها عن الرذائل، ولا عجب فإن صلاح النفس دعامة صلاح الأمور.

obeikandl.com

obeikandl.com